المأساة الفاشستية

بقلم باحث دبلوماسي كبير

في الثامن والعشرين من اكتوبر احتفلت إيطاليا باختتام العام الثالث عشر لظفر الفاشستية الايطاليـة وقيام النظام الفاشستي ؛ فمنذ ثلاثة عشر عاماً زحف موسوليني وأنصاره من ذوي الأقمصة السود على رومة ، وانتزعوا مقاليد الحكم ؛ ومنذ ثلاثة عشر عاماً يسيطر موسوليني وحزبه على مصاير إيطاليا ومصاير الشعب الايطالي ؛ ولكن الفاشستية الايطالية تحتفل بعيدها الأول مرة في ظروف خاصة ؛ فهي الآن في مأزق خطر ، بل هي تجوز معركة الحياة والموت ؛ وهي تشعر لأول مرة بمرارة الخيبة وانهيار الآمال ، وترى مشاريعها الاستعمارية العريضة في ميزان القدر تكبدها من الخسائر والمشاق الفادحة ما لم تكن تحلم بتكبده ولا قبل لها باحتماله ، وترى فوق ذلك نفسها تواجه كتلة عالمية من الأمم الناقمة الساخرة تحيطها بسياج من الحفيظة والبغض ، وتنظم ضدها مقاومة مادية فعالة وتزمع أن تقضي على كل مطامعها وأحلامها

والفاشستية هي التي جنت على نفسها وعلى إيطاليا ، وهي التي زجتها إلى ذلك المأزق الذي تتخبط فيه ولا ترى سبيلاً إلى الخلاص منه ؛ فهي التي أقدمت عامدة مصرة على غزو الحبشة وانتهاك المعاهدات الدولية ؛ وهي التي لم تخجل أن تصرح في جرأة منقطعة النظير أنها تغزو الحبشة وتعتدي على استقلالها لأنها في حاجة إلى التوسع والاستعمار واستغلال الثروات الطبيعية التي تبطنها وهاد الحبشة ؛ وهي التي أثارت بعدوانها وغرورها وحقها السياسية اشمئزاز كل الشعوب المتمدنة ؛ وهي الآن في محنتها ويأسها تحاول أن تتشح بثوب الظافر ، لأن الجيوش الايطالية استولت على بعض الأراضي الحبشية في الشمال وفي الجنوب ؛ ولكن العالم يعرف جيداً أن هذا النصر اليسير لم يكن نتيجة معارك حقيقية ولا بطولة عسكرية ، وأنه مع ذلك قد كبد إيطاليا أعظم الجهود والخسائر ، وأن المعارك الفاصلة مازالت تنتظر إيطاليا في الوهاد الحبشية السحيقة التي لن تبلغها إلا بأفدح تضحية من المال والرجال

لقد كان قيام الفاشستية في إيطاليا أول ضربة حقيقية للديموقراطية والحريات الشعبية بعد الحرب الكبرى ؛ وكانت الديموقراطية قد استطاعت غداة النصر أن تكتسح النظم الأمبراطورية في ألمانيا والنمسا ؛ ولكن الديموقراطية انساقت في فورة الظفر إلى ألوان خطرة من التطرف والفوضى ؛ وكانت إيطاليا مسرحاً لهذا التطرف ، ففي غمر الاضطراب العام وثبت الفاشستية تؤيدها العسكرية ، وتؤيدها الصناعات الكبرى والمالية العليا ، وقبضت على زمام الحكم بقوة ؛ وظن خصومها في البدأ أنها فورة الساعة وأن ريحها لن تلبث أن تركد ، ولكن فورة الفاشستية كانت أشد وأقوى مما تصوروا ، وكانت المعركة قصيرة المدى ، فلم يمض سوى قليل حتى سحقت الفاشستية خصومها ، وسحقت الاشتراكية والديموقراطية ، وكل النظم البرلمانية الحقيقية ، وأخضعت الصحافة لصولها ، ولم تبق متنفساً للشعب الايطالي سوى طريقها ، ولم تسمح له بأن يفكر إلا برأيها أو أن يرى إلا بعينها ، وامتزجت الدولة بالحزب ، ففقدت الفاشستية هي الحكومة وهي الدولة ، وهي مصدر السلطات وهي كل شيء في حياة إيطاليا العامة ، وفي مرافقها ومصايرها

كان ظفر الفاشستية سريعاً ، وكان مطلقاً ، ولكنها لم تدخر لتحقيق هذا الظفر أية وسيلة مثيرة ؛ ولسنا نقف طويلاً بهذه الوسائل الهمجية التي أصبحت روح النظم الطاغية في عصرنا ، سواء في روسيا البلشفية أو تركيا الكمالية أو إيطاليا الفاشستية أو ألمانيا الهتلرية ، والتي تقوم على القتل والسجن والنفي والمصادرة وغيرها من أساليب العنف المنظم ؛ ولكنا نقول أيضاً في إنصاف هذه الفاشستية الهمجية أنها لم تكن شراً مطلقاً ، بل كانت لها آثار داخلية حسنة ، وقد أسفرت جهودها في سبيل الانشاء والتنظيم عن نتائج مادية ظاهرة الأثر في تكوين إيطاليا الحديثة وفي تطورها وتقدمها ؛ فقد سحقت عوامل التفرق القديم الذي خسرت ايطاليا من جرائه مغانم الحرب في معاهدة الصلح ، وسحقت عوامل الفوضى التي كادت تشل الحياة الاقتصادية في ايطاليا ، وبثت في الشعب الايطالي روحاً جديداً

وعزائم جديدة فى ميادين النشاط والتفكير والعمل ، فخطت الزراعة والصناعة والتجارة إلى الأمام خطوات واسعة ، ونظمت موارد الثروة القومية تنظيما مدهشاً ؛ وبذلت الفاشستية جهوداً محمودة لمعالجة الركود الاقتصادى والبطالة ، وحماية الانتاج القومى ، وقامت بعشرات المشاريع العمرانية النافعة ، ولم تترك وجهاً من وجوه الحياة العامة إلا عملت لاصلاحه وتقويمه ؛ ولم تقف عند العمل فى ميادين النشاط المادى ، بل عملت أيضاً فى النواحى المعنوية ، فطهرت الحياة الاجتماعية من كثير من أدرانها القديمة ، وبثت فى الشعب الايطالى روحاً جديداً من العزيمة والخلال الحسنة ، وقد كان قبل قيام الفاشستية فى حالة يرثى لها من الانحلال الفكرى والأخلاق ، ونظمت الشباب والنشء تنظيما بديعاً ؛ والخلاصة أنها من حيث الوجهة الداخلية ، خلقت ايطاليا خلقا جديداً ، وسارت بها فى سبيل التقدم شوطاً بعيداً . وأما من حيث الوجهة الخارجية فقد عملت الفاشستية أيضاً لتقوية ايطاليا فى البر والبحر والهواء ، ورفعتها من حيث القوة العسكرية والهيبة الدولية إلى مصاف الدول العظمى ذات الرأى المسموع

كل ذلك عملته الفاشستية فى أعوامها الثلاثة عشر ؛ ولكنها عملته فوق أكداس من الجرائم والضحايا ، وعلى انقاض الحريات العامة والكرامة البشرية والاستقلال الروحى والفكرى ؛ والفاشستية مادية مغرقة فى المادية ، والمعنويات فى نظرها وسيلة إلى تحقيق المصالح المادية ؛ ومن ثم جعلت من الجيل الايطالى الجديد ، فى تفكيره وعقليته وتصرفاته قطيعاً من البشر مسلوب الرأى والارادة ، توجهه الزعامة العنيفة أينما شاءت . وكان من أكبر وأخطر جرائم الفاشستية أنها بثت فى الشعب الايطالى روحاً خطرة هى روح الغرور المغرق ؛ ولا بأس من أن يتصف الشعب بالكبرياء القومية وأن يستمد من ماضيه المجيد وعظمته الحاضرة أسباب العزة القومية ، ولكن الفاشستية بثت فى الشعب الايطالى أخطر عوامل الكبرياء والتحدى الفارغة ؛ فالايطالى الجديد يعتبر نفسه اليوم أرقى الخليقة ، وأنه خلع بارتداء الفاشستية أثواب أوربا البالية ، وأنه غدا يشرف من ذروة عظمته الجديدة على بؤس القارة القديمة وتدهورها ، وأنه سيقود أوربا الجديدة طبق مبادئه وآرائه ؛ ثم هنالك ما هو أخطر من هذه الأوهام المعنوية ؛ فقد بثت الفاشستية فى الجيل الجديد روح العداء لأوربا القديمة ، وروح التطلع والتحفز والعدوان ، ولقنته نظرية جديدة هى أن ايطاليا الفاشستية خليفة الدولة الرومانية القديمة وقرينتها ؛ وأن موسوليني إن هو إلا قيصر يقودها فى سبيل الفخار والمجد ، وغمرت هذه الروح القيصرية ذلك الشباب المغرور المتحدى ، فأصبح يتصور أنه سيعيد حدود الدولة الرومانية القديمة ، وأنه سيفتح مصر والأناضول وسورية وشمال افريقية ، ويجعل من البحر الأبيض بحيرة رومانية ؛ ومضت ايطاليا الفاشستية تسخر بلسان زعيمها من كل دعوة للسلام ونزع السلاح ، وكل دعوة إلى تفاهم الأمم ، وآثرت نغمة الوعيد والتهديد ، والحرب والانتقام

غير أن ذلك الروح الحربى المضطرم لم يتمخض عن احياء الدولة الرومانية ، ولا استعادة شىء من حدودها أو أملاكها القديمة ، ولكنه تمخض عن مشروع استعمارى مثير وضيع معاً : ذلك هو غزو الحبشة وافتتاحها لاستخلاص ثرواتها الدفينة ، وليكون منها ومن الصومال والأرتريا لايطاليا القيصرية امبراطورية استعمارية ضخمة ؛ وقد كان زعيم الفاشستية يحلم بأن جيوشه ستكتسح الفريسة فى سيل من النصر الباهر يدهش العالم ويروعه معاً . ولكن الفريسة صمدت للمعتدين عليها ، وأفهمتهم أن دون ازهاقها أهوالا وتضحيات فادحة ؛ وقد كانت الفاشستية فى ذلك معتدية أثيمة تنكر أبسط مبادئ الحق والعدالة ، بل تنكر ماضيها وعهودها وتصريحاتها التى أذاعتها لأول عهدها بلسان زعيمها . واليك مبادئ السياسة الخارجية الفاشستية كما أذاعها موسوليني فى أول برلمان فاشستى : « لا نريد استعمارا ، ولا نريد اعتداء ، ولكنا سنتخذ موقفاً يقضى على سياسة الاذلال التى جعلت ايطاليا أقرب إلى وصيفة وخادمة ذليلة للأمم الأخرى ؛ احترام للمعاهدات الدولية مهما كلفنا ذلك ؛ اخلاص وصداقة نحو الأمم التى تقدم لايطاليا أدلة صادقة على مبادلة هذه العواطف ؛ تأييد للتوازن الشرقى الذى يقوم عليه سلام الدول البلقانية ، ومن ثم يقوم عليه سلام أوربا وسلام العالم » ، ولكن الفاشستية وهى حركة عنيفة تقوم على القوة وتعتبر الحق للقوة ، لا يمكن أن ترتبط بعهد أو ذمام ، ولا يمكن

أن تؤمن بالحق لذاته أو العدالة لذاتها ؛ وقد نمت الفاشستية واشتد ساعدها بسرعة ، واستطاعت أن تخلق من ايطاليا قوة يخشى بأسها . بيد أنها بدلا من أن تقف هذه القوة لتأييد الحيبة والمصالح القومية المشروعة ، اتخذت منها أداة لتهديد سلام أوربا وسلام العالم ، وجعلتها وقفاً على تحقيق الشهوات الحربيـة والاستعمارية ، ولم تحجم عن أن تعرض سلام العالم للخطر فى سبيل شهواتها وغاياتها

واليوم وقد انساقت الفاشستية إلى مغامرتها الخطرة ، فانها تشعر لأول مرة فى تاريخها بصدمة حقيقية ؛ وقد كان موسوليني يظن أنه يستطيع افتراس الحبشة بأيسر أمر وعلى مرأى ومسمع من العالم ، وأن صيحات الوعيد المتكرر تكفى لاخماد كل معارضة وتدخل ؛ ولم يكن موسوليني ليقيم وزناً لعصبة الأمم ، وقد سحق مبادئها من قبل يوم احتل جزيرة كورفو ليرغم اليونان على تنفيذ مطالبه لخلاف نشأ بينهما من جراء مقتل بعض الرعايا الايطاليين فى الأراضي اليونانية ؛ وكان موسوليني على حق فى استخفافه بالعصبة وجهودها ؛ ولكن من كان يظن أن عصبة الأمم ستضطرم فجأة بروح جديدة ؟ ومن كان يعتقد أنها ستجترئ على اتخاذ تلك القرارات التاريخية الشهيرة فتلقى تهمة الاعتداء العمد فى وجه إيطاليا وتقضى عليها بالعقوبات الاقتصادية ؟ ولكن عاملاً جديداً لم يكن يتصوره موسوليني قط هو الذى وثب فجأة ووقف للفاشستية ولايطاليا بالمرصاد ، واستطاع أن يقلب جميع الأوضاع الدولية فى أسـابيع قلائل : ذلك هو تدخل انكلترا وتحرك الامبراطورية البريطانية . ولقد كانت انكلترا تبغض الفاشستية منذ قيامها ، وتعتبرها خطراً على السلم الأوربى ؛ ولكنها مذ اشتد ساعد الفاشستية وذكا وعيدها وتدفقت جيوشها إلى شرق افريقية ، أدركت أن الفاشستية قد اصبحت بمطامعها ومشاريعها الاستعمارية خطراً داهماً على الامبراطورية البريطانية ، وعلى دولتها الاستعمارية فى وادى النيل وشرق افريقية ، وعلى سيادتها فى البحرين الأبيض والأحمر ؛ ويجب لتأمين سلام الامبراطورية وأمنها ، أن تسحق هذه الفورة الخطرة ؛ وهناك عامل معنوى آخر يقتضى فى نظر انكلترا الحكم على الفاشستية ، هو أنها رمز النظم الطاغية العنيفة التى يمقتها الشعب الانكليزى ، ويراها خطراً على الديموقراطية التى غدت انكلترا ملاذها وحصنها الأخير بعد أن اجتاحت معظم الدول الأوربية ؛ وهكذا تستحيل المعركة اليوم إلى نضال خطير بين الفاشستية وبين الأمبراطورية البريطانيـة مستترة وراء عصبة الأمم ؛ ولقد كان نجاح انكلترا عظيماً فى حشد أمم العالم ضد إيطاليا باسم العصبة ، وفى تنظيم هذه العقوبات الاقتصادية التى ستشل عما قريب كل موارد إيطاليا وقواها المالية والاقتصادية ؛ وهكذا تنهار تدابير الفاشستية فجأة ، وترى نفسها وحيدة فى الميدان ، تواجه سخط العالم وتأليه ، وتواجه الامبراطورية البريطانية ؛ وفى رأينا أنه ليس ثمة شك فى نتيجة هذه المعركة ، فالفاشستية تجوز معركة الحياة والموت ، وهى تسير بلا ريب إلى انحلالها ، وليس فى وسعها أن تثبت طويلاً أمام هذه الصعاب الفادحة التى تواجهها فى الخارج وفى الداخل ؛ وتدل الطوالع على أن الحرب الحبشية التى أريد أن تكلل جبين الفاشستية بهالة من الظفر ستغدو قبراً للفاشستية ؛ ومن المرجح أن يقترن فشل الفاشستية فى مشروعها الاستعمارى بانهيار سلطانها فى الداخل ، وعندئذ تختتم تلك المأساة الطويلة بانقلاب حاسم ، وتتحرر إيطاليا من تلك الأغلال الحديدية التى صفدتها مدى ثلاثة عشر عاماً ، ويتنفس العالم سعيداً إذ يرى مصرع تلك الفورة الطاغيـة الخطرة التى مازالت منذ قيامها تهـدد أمنه وسلامه

(***)